مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2021 المجلد: 04 العدد: 03 ص.ص: 838-851

النداء الموجّه للمرأة في القرآن الكريم والأساليب المرتبطة به (دراسة بلاغية دلالية)

The call (The vocative mood) directed to woman in Koran and the styles related to it, a rhetorical indicative (semantic) study

جمال قالم، جامعة بالبويرة، (الجزائر) d.kalem@univ-bouira.dz

تاريخ إرسال المقال: 30-04-2021 تاريخ قبول المقال: 21-06-2021

الملخص:

القرآن الكريم خطاب الله الذي وجّهه إلى الخلق جميعا، إنسهم وجنّهم، ذكرانهم وإناثهم، ولعلّ من أبرز مظاهر هذا الخطاب أسلوب النداء، والذي لا يكون إلاّ في أمر هامّ وعظيم، ومن وظائف النداء إثارة اهتمام المخاطب وجلب انتباهه وضمان إصغائه والتفاته وتتبّعه لما يلقى عليه، وقد حظيت المرأة بنصيب منه، ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث لتتبّع مواطن النداء الموجّه للمرأة في القرآن الكريم وبيان بلاغته وما ارتبط به من أساليب بلاغية أخرى، خبريّة كانت أم إنشائيّة، وكشف دلالة ذلك الارتباط، والبحث في المعاني التي تضمّنتها هذه الأساليب، ومن ثمّ الإشارة إلى أنواع النساء المخاطبات في القرآن الكريم، وتلك التكاليف والتوجيهات التي شرّعها الحكيم الخبير للمرأة عقديّا ونفسيّا واجتماعيّا.

الكلمات المفتاحية: النداء، القرآن الكريم، المرأة، البلاغة.

Abstract: Koran are the words of Allah with which he addresses all his creation, human and gins, masculine and feminine, The call which is one on the most exposed aspects of Koran, wouldn't be used unless it is an important matter, One of its function is raising the attention of the addressed and making him ready to listen attentively to what's been said, Women had their part of this style (the call) and that was the starting point of the idea of this intervention in order to trace the places where The call which is directed to woman in Koran, and to show its eloquence and also other rhetorical styles that were related to it the call as informative or structural ones and to reveal the indication of that correlation, also to search for the meanings included in those styles, then, to cite the kinds of the addressed women in Koran, and all those doctrinal, psychological sociable duties that were legislated by the most just ruler, the all aware.

Key words : The call, Koran, woman, Rhetoric**.**

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2021 المجلد: 04 العدد: 03 ص.ص: 838-851

مقدمة:

يعدّ أسلوب النداء من الأدوات المهمّة في اللغة العربيّة، فهو يؤدّي دورا كبيرا في العمليّة التواصليّة، لما له من أثر في إثارة انتباه المتلقّي ومن ثمّ وصول الرسالة إليه، نجد أسلوب النداء حاضرا في القرآن الكريم، بكلّ أركانه وأدواته، متنوّعا فيه المنادي والمنادى، ففيه نداء الله لعباده، وفيه نداء العباد لله، وفيه كلّ ألوان النداء حسّا ومعنى، الأمر الذي حضّ الدارسين على البحث في هذا الباب، فمنهم من درس أسلوب النداء في القرآن الكريم في إطار البحث في بلاغة الكتاب الكريم، ومنهم من أفرد كتابا في النداء القرآني بصورة عامّة، ومنهم من صنّف في نداء الله لرسله عامّة أو لرسوله الكريم صلّى الله عليه وسلّم خاصّة، ولعلّ الجانب الذي لم يقف عليه الدارسون، على حدّ علمي، هو النداء القرآنيّ الموجّه للمرأة.

من هنا جاءت فكرة هذا البحث الموسوم: النداء الموجّه للمرأة في القرآن الكريم والأساليب المرتبطة به دراسة بلاغية دلالية، والإشكال المطروح في هذا الصدد هو: كيف تشكّل النداء القرآني الموجّه للمرأة؟ وماهي سيماته البلاغية؟ وما الدلالات التي تضمّنتها هذه النداءات القرآنيّة؟ هذه التساؤلات وغيرها يحاول هذا البحث الإجابة عنها في خطّة من مبحثين، الأوّل يخوض في المفاهيم النظريّة المتعلّقة بالنداء كمبحث بلاغيّ بارز، وأمّا الثاني فيكشف النداءات الموجّه إلى المرأة في الآيات الكريمة ويقاربها بلاغيّا ودلاليّا، مستغلاّ في ذلك المنهج الوصفيّ التحليليّ، وعلى الله الاعتماد وحده، فهو نعم المولى ونعم الوكيل.

المبحث الأول: النداء: المفهوم والبلاغة

تقوم حياة البشر على اللغة وعلى أدواتها المختلفة، منها النداء، الذي يسهم إسهاما بالغا في توثيق الصِلات بين الناس وفي دعم العمليّة التواصليّة التبليغيّة بينهم وقضاء حاجاتهم، والنداء في معناه العام قديم قدم اللغة، بل ومن الدارسين من يرى أنّه« أقدم عناصر اللغة الإنسانيّة نشأة واستعمالا لمسيس الحاجة إليه والوظيفة الكبيرة التي يؤدّيها بين أفراد البشر مذ وجدوا على ظهر البسيطة»[1]، فهو منبّه للطرف المستقبل أو المتلقّي من جهة، وحامل لرسالة مهمّة من المرسل من جهة ثانية، ومن هنا سيركّز هذا المبحث على معاني النداء في اللغة وفي الاصطلاح في مطلب أوّل، ثمّ الإشارة إلى الأغراض البلاغيّة للنداء في مطلب ثان.

1 . فارس أحمد محمد، النداء في اللغة والقرآن، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1989، ص: 07.

المطلب الأول: في معاني النداء

درج الدارسون قبل الخوض في دراسة مواضيعهم الإشارة إلى المعاني اللغويّة والاصطلاحيّة لهذه المواضيع، لذا خصّصت هذا المطلب لمعني النداء، حتى يتبيّن للقارئ ويأخذ صورة واضحة عنه.

أولا: النداء لغة:

النداء في اللغة، كما جاء في لسان العرب هو:« الصوت مثل الدُّعاء والرُّغاء، وقد ناداه ونادى به وناداه مُناداة ونِداء أَي صاح به. وأَنْدى الرجلُ إذا حسُن صوته... رجل نَدِيُّ الصوتِ: بَعِيدُه. والإنْداء: بُعْدُ مَدى الصوت. ونَدى الصوتِ: بُعْدُ مَذْهَبه. والنِّداءِ، ممدود: الدُّعاءِ بأَرفع الصوت، وقد نادَيْته نِداء، وفلان أَنْدى صوتاً من فلان أَي أَبْعَدُ مَذْهباً وأَرفع صوتاً»[1]، إذاً فالمعاني اللغويّة للنداء المتّصلة بموضوعنا هي الدعاء برفع الصوت.

ثانيا: النداء في الاصطلاح:

عرّف بعض الدارسين النداء بقولهم:« النداء: توجيه الدعوة إلى المخاطب، وتنبيهه للإصغاء، وسماع ما يريده المتكلّم»[2]، كما عرّفه بعضهم بأنّه:« طلب الإقبال حسّا أو معنى بحرف نائب مناب أدعوا، سواء كان ذلك الحرف ملفوظا أم مقدّرا»[3]. فالنداء إذاً وسيلة لجلب انتباه المخاطَب(المنادى) من أجل استيعابه ما يلقى عليه من المتكلّم، وفهمه مضمون رسالته.

وللنداء حروف ستّة هي: الهمزة(المقصورة والممدودة)، وأي(المقصورة والممدودة)، يستعملان للقريب، وأمّا يا التي هي أصل النداء ينادى بها البعيد حقيقة أو حكما« وقد ينادى بها القريب تعظيما لشأنه أو استقصار الداعي نفسه»[4]، و أيا و هيا تستعملان للبعيد، أمّا وا فتستعمل في الندبة[5].

1 . ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، مج: 06، ج: 48، تح: عبد الله علي الكبير والآخران، دار المعارف، القاهرة، د ت، ص: 4388.

2 . عباس حسن، النحو الوافي، ج: 04، ط: 03، دار المعارف، القاهرة، ص: 01.

3 . ياسين عبد العزيز أبو سريع، الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية، مطبعة السعادة، مصر، 1989، ص: 316.

4 . نفسه، ص: 280.

5 . ينادى على المندوب بنبرة فيها لوعة وتفجّع.

وقد عدّد النحاة أنواع المنادى وهي: العلَم المفرد والمضاف والشبيه بالمضاف والنكرة المقصودة والنكرة غير المقصودة[1]، وهذه في الغالب الأعمّ مباحث متعلّقة بالجانب النحويّ، لذا سأقتصر على هذه اللمحة لأركّز النظر على الجانب البلاغيّ والدلاليّ.

المطلب الثاني: بلاغة النداء

النداء قسم من أقسام الإنشاء الطلبيّ، باعتباره يستدعي مطلوبا،« وهو لون من الخطاب، ولا يكون إلاّ في أمر هامّ، وحين يعظم هذا الأمر يصحب النداء أساليب أخرى لها تأثير قويّ كالأمر والنهي والاستفهام، وغالبا ما يتقدّم النداء لضمان اهتمام المخاطب وإصغائه والتفاته وتتبّعه لما يلقى عليه»[2]. لذلك جاء قول ابن مسعود رضي الله عنه:« إذا سمِعتَ اللَّهَ يقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فأرعِها سمعَكَ، فإنَّهُ خيرٌ يأمرُ بِهِ أو شرٌّ ينهَى عنهُ»[3]، فالقصد من تقديم النداء على الأساليب الأخرى هو تنبيه المخاطَب لغاية تأتي بعده يحدّدها السياق، ليكون حاضر الذهن واعيا ما سيقال له« ليتمكّن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادى»[4].

ويرى السيوطيّ أنّ أصل النداء بـ يا أن تكون للبعيد حقيقة أو حكما[5]، وهي أكثر أحرفه استعمالا[6]، وقد ينادى بها القريب لنكت منها [7]:

أ-إظهار الحرص في وقوعه على إقبال المدعو نحو يا موسى أقبل.

ب- كون الخطاب المتلو معتنى به نحو يا أيها الناس اعبدوا ربكم.

ج- قصد تعظيم شأن المدعو نحو: يا رب وقد قال تعالى:﴿ فَإِنِّے قَرِيبٌۖ ﴾ ومنها قصد انحطاطه كقول فرعون وإني لأظنّك يا موسى مسحورا.

1 . ينظر: هارون عبد السلام محمد، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ط: 05، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص: 139.

2 . دراز صبّاح عبيد، الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، مطبعة الأمانة، مصر، 1986، ص: 276.

3 . ابن كثير إسماعيل، عمدة التفسير، ج: 01، تح: أحمد شاكر، ط: 02، دار الوفاء، مصر، 2005، ص: 619.

4. القزويني زكريا بن محمد، الإيضاح في علوم البلاغة، وضع الحواشي: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص: 254.

5 . السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج: 04، تح: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، 1426، ص: 1218.

6 . نفسه، ص ن.

7 . السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج: 05، ص: 1720.

إذًا قد ينزّل البعيد منزلة القريب أو قد ينزّل القريب منزلة البعيد لاعتبارات يراها المتكلّم(المنادي)، فيسعمل الحرف في غير ما وضع له أصلا، وهنا يكون للسياق دوره في بيان هذا العدول.

كما قد تحذف يا النداء لأغراض بلاغيّة، فقد يكون الحذف للعجلة والإسراع أو قد يكون للإيجاز والاختصار، كما قد يكون لقرب المنادى قربا حقيقيّا أو معنويّا كالتنزيه والتعظيم وغير ذلك[1]، والتي سأحاول بيان بعضها في المبحث الموالي.

المبحث الثاني: النداء القرآنيّ الموجّه للمرأة والأساليب المرتبطة به:

ورد النداء في الخطاب القرآنيّ، بصيغ مختلفة، وبأساليب شتّى، وفي آيات النداء« يلمح القارئ قوّة الأسلوب، وترابط الأفكار، واشتمالا على أصول التشريع وسياسة الخلق وقواعد الحكم وآداب المعاملة، ونظام العبادات، ودعوة إلى التوحيد، ولفت الأنظار إلى قدرة الله البالغة، وعلمه المحيط بكلّ شيء، والبرهان على صدق الرسالة المحمّديّة»[2]، وغيرها من الغايات التي ينبّه عليها القرآن الكريم، حرصا منه على جلب انتباه المخاطَبين واستيعابهم لرسالته السامية.

ذكر الله عزّ وجلّ بعض النساء في القرآن الكريم، لكنه جلّ وعلا لم يصرّح بأسمائهن، كزوج آدم، امرأة إبراهيم، امرأة فرعون، امرأة العزيز، امرأة عمران، امرأة نوح، امرأة لوط، ونساء النبي، ولم تذكر في القرآن امرأة باسمها إلّا مريم، وقد أفرد جلّ وعلا لها سورة باسمها في القرآن الكريم، كما توجد في القرآن الكريم سورة النساء كجمع للمرأة، لمكانة المرأة في الإسلام، فالله عزّ وجلّ رفع قدرها، حتى وصلت بعضهنّ إلى درجات عالية، فقد جاء عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:« كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»[3] وهذا يعني أنّ من النساء من بلغن مرتبة عالية ولكن لا تصل إلى الرتب التي بلغها الرجال، الذين كان منهم الأنبياء، والنبوّة لا تكون للنساء.

وأمّا النداء الموجّه إلى المرأة في القرآن الكريم فقد جاء في صورتين، من خلال المنادى، الصورة الأولى منه النداء الموجّه إلى امرأة بعينها وهي مريم عليها السلام، والصورة الثانية منه النداء الموجّه إلى جمع النساء بعينه وهنّ نساء النبيّ.

1 . ينظر: السامرائي فاضل صالح، معاني النحو، ج: 04، دار الفكر، عمان، 2000، ص: 322.
2 . فارس أحمد محمد، النداء في اللغة والقرآن، ص: 136.
3 . البخاري محمد بن إسماعيل، صحيح البخاريّ، دار ابن كثير، دمشق، 2002، ص: 924.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2021 المجلد: 04 العدد: 03 ص.ص: 838-851

المطلب الأول: النداء الموّجه إلى مريم ابنة عمران:

ورد النداء الموجّه إلى مريم في سورتين كريمتين هما: سورة آل عمران وسورة مريم، سأوردها مرتّبة وفق ورودها في المصحف الشريف.

أولا: نداء زكريا لمريم:

قال تعالى:﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ)﴾ سورة آل عمران.

المنادي في هذه الآية الكريمة هو زكرياء عليه السلام والذي كان كافلا لمريم، لأنّه زوج خالتها، فكان كلّما دخل عليها وجد عندها رزقا، يقال كانت تؤتَى بفاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء[1]، ومن هنا ناداها مستعملا ياء النداء، ومستفهما عن هذا الرزق، مخاطبا إيّاها(أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا)، وأنّى: تكون للاستفهام، بمعنى(كيف)، وتكون أيضا بمعنى (من أين)، أي: من أين لك هذا؟ وهذا المعنى الأخير هو الذي تضمّنته الآية الكريمة، لذلك جاء الجواب(هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ)، وهذا جزاء التقوى، فإنّ من اتقى الله رزقه بغير حساب ومن حيث لا يحتسب، مصداقا لقوله تعالى:(... وَمَنْ يَّتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ) سورة الطلاق.

ثانيا: نداء الملائكة لمريم عليها السلام:

1- الموضع الأوّل:

قال تعالى:﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَۖ(42) يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَۖ (43) ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ (44)إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَۖ45()) سورة آل عمران.

المنادي في الآية الكريمة﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ هو الملائكة الكرام، والمقصود بالملائكة هو جبريل عليه السلام، وهنا إطلاق لفظ الجمع والمراد به المفرد، يأتي بعد النداء أسلوب خبريّ طلبيّ مؤكّد بـ" إنّ" لأنّ مريم لم تكن على دراية بالخبر،

1 . ينظر: ابن كثير إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم، بيروت، 2000، ص: 363.

من جهة، ومن جهة أخرى فالخبر قطعيّ لا شكّ فيه، لأنّه من ربّ العالمين، والخبر يحمل إلى مريم بشرى بالاصطفاء، وهو اصطفاءان اثنان،« الاصطفاء الأول يرجع إلى الصفات الحميدة والأفعال السديدة، والاصطفاء الثاني يرجع إلى تفضيلها على سائر نساء العالمين، إما على عالمي زمانها، أو مطلقا»[1]، فالاصطفاء الثاني خاص بمريم عليها السلام فهي الوحيدة التي أنجبت دون أن يمسسها بشر، فلم تشاركها إمرأة في هذه الميزة، وتكرار لفظة الاصطفاء عدّه السيوطي من باب التكرير لا التأكيد اللفظي الصناعي[2]. ويرى أنّ التكرير أبلغ من التأكيد وعدّه من محاسن الفصاحة[3].

وارتبط النداء في الأية الكريمة﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ بالأمر بالقنوت والسجود والركوع، والقنوت هو« دوام الطاعة في خضوع وخشوع»[4]، واختلف المفسّرون لما قدّم لفظ السجود على لفظ الركوع بين من يرى أنّ تقديم السجود على الركوع لا يعني الترتيب، فالواو لا تفيد التعقيب والترتيب وإنّما تفيد الاشتراك، ومنهم من يرى أنّ السجود يعني صلاتها في بيتها، والركوع صلاتها مع الجماعة[5]، ومنهم من يرى أنّ تقدّيم السجود لأهمّيته« لأنّه أدخل في الشكر، والمقام هنا مقام شكر»[6]، ومنهم من يرى أنّ تقديم السجود لكثرته على الركوع.

وتكرار النداء في قول الملائكة﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي﴾ لقصد الإعجاب بحالها،« لأنّ النداء الأوّل كفى في تحصيل المقصود من إقبالها لسماع كلام الملائكة، فكان النداء الثاني مستعملا في مجرّد التنبيه الذي ينتقل منه إلى لازمه وهو التنويه بهذه الحالة والإعجاب بها»[7].

1 . السعدي عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، دار ابن حزم، بيروت، 2003، ص: 113.

2 . ينظر: السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج: 02، ص: 180.

3 . ينظر: نفسه، ج: 02، 179.

4 . السعدي عبد الرحمن بن ناصر، المصدر السابق، ص: 113.

5 . ينظر: القرطبي محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، ج: 05، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي ومحمد رضوان عرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2006، ص: 129.

6 . ابن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، ج: 03، ص: 244.

7 . المصدر نفسه، ص ن.

2- الموضع الثاني:

قال تعالى:(فَنَادٰيهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِے قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً (23)وَهُزِّےٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ اِلنَّخْلَةِ تَسَّٰقَطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً (24) فَكُلِے وَاشْرَبِے وَقَرِّے عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ اَلْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِےٓ إِنِّے نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْماً فَلَنْ اَكَلِّمَ اَلْيَوْمَ إِنسِيّاً (25)) سورة مريم.

جاء النداء في الآية الكريمة:﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ بأسلوب خبريّ، لأنّ فعل النداء مذكور، وهو فعل نادى، وغاب حرف النداء ظاهرا أو محذوفا، كون الحرف يقلب أسلوب النداء من الخبر إلى الإنشاء، والمنادى هو مريم عليها السلام، أمّا المتكلّم أو المنادي في هذه الآية الكريمة اختُلف فيه، ففيها قراءتان، قرأ بعضهم(مِن تحتِها) على أنّه حرف جر، وقرأ آخرون(مَن تحتَها) بمعنى الذي تحتها، ففي القراءة الأولى أريد مِن تحتِها جبريل عليه السلام، فقد« سكّن المَلَك روعها وثبّت جأشها وناداها من تحتها، لعله في مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني، أي: لا تجزعي ولا تهتمي»[1]، ناداها مِن تحتها أي من سفح الجبل وكانت مريم في أعلى الربوة، وفي القراءة الثانية بـ(مَن تحتَها) المقصود هو عيسى عليه السلام لما خرج من بطن أمه ناداها: ألّا تحزني[2]، فقد أنطقه الله وهو في المهد.

ويعقب النداء أساليب أخرى متمثّلة في النهي﴿ أَلَّا تَحْزَنِي﴾، وبعده جاء الخبر﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ بشرى لمريم بنهر تشرب منه، أو ولد يكون له شأن[3]، لتطمئنّ نفسها، ثمّ يأتي بعد ذلك الأمر: وَهُزِّي، فَكُلِي، وَاشْرَبِي، وَقَرِّي عَيْنًا، فَقُولِي، وكأنّ الأفعال لا تكون إلاّ بالحضور العقليّ والراحة النفسيّة، وهذا الانتقال العجيب والترتيب الفريد لهذه الأساليب عدّه بعض البلاغيين من باب المتابعة، والمتابعة في الكلام هي« أن يأتي المتكلمُ بالمعاني التي لا يجوز تقديمُ بعضها على بعض، لأنّ المعاني فيها مُتتالية، فالأولُ يتلوه الثاني والثاني يعقُبُه الثالث، إلى أن ينتهي المتكلّمُ إلى غاية مُرادِه، ولا يجوز

1 . السعدي عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 465.

2 . ينظر: الطبري محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج: 15، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، 2001، ص: 506 . 510.

3 . ينظر: نفسه، ص ن.

تقديمُ الثاني على الأول، ولا الثالث على الثاني»[1]، ونجد هذا التعاقب واضحا في الأيات الكريمة، بل هو« من أحسنِ صِناعةِ الكلامِ في هذا الباب فسُبْحانَ المتكلم به وتعالى عُلُوّاً كبيراً»[2].

ثالثا: نداء قوم مريم لها:

قال عزّ وجلّ:﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۖ (26) يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۖ (27)﴾ سورة مريم.

المنادي في قوله تعالى:﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ هو قوم مريم، وقد نادوها باسمها، ثم يأتي الأسلوب الخبريّ في قولهم على مريم بهتانا﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي شيئا عظيما، اتهاما لها بالفاحشة، ونرى هنا الخبر مؤكّدا بـ لقد، فقد: حرف يفيد التحقيق إذا جاء مع الفعل الماضي، لأنّهم يحكمون على الظاهر ويحكّمون أهواءهم.

وأمّا قوله تعالى:﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ وهذا نداء ثانٍ من هؤلاء القوم، وتكرار النداء هنا يفيد التقريع وزيادة في التوبيخ، وهذه المرّة لم يخاطبوها باسمها بل باسم أخيها، فالمنادى هنا مضاف، وقَوْلُهُ تَعالى ﴿يا أُخْتَ هارُونَ﴾« يُحْتَمَلُ أنْ يَكُونَ عَلى حَقِيقَتِهِ، فَيَكُونَ لِمَرْيَمَ أخٌ اسْمُهُ هارُونُ كانَ صالِحًا في قَوْمِهِ، خاطَبُوها بِالإضافَةِ إلَيْهِ زِيادَةً في التَّوْبِيخِ، أيْ ما كانَ لِأُخْتِ مِثْلِهِ أنْ تَفْعَلَ فِعْلَتَكَ»[3]، ويؤيّد وجود أخ لمريم، الحديث الشريف: عن المغيرة بن شعبة قال:« بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران، فقالوا: ألستم تقرؤون:﴿ يا أُخْتَ هارُونَ﴾ وقد علمتم ما كان بين موسى وعيسى من القرون؟ فلم أدر ما أجيبهم، فرجعتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال: ألا أخبرتَهم أنّهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»[4].

كما فسّر بعضهم﴿ يا أُخْتَ هارُونَ﴾ برجل صالح يسمى هارون بني إسرائيل، شبهوها به في الصلاح والعبادة، ومنهم من قال أنّ﴿ يا أُخْتَ هارُونَ﴾ أي أنّها كانت من نسل هارون أخي موسى عليهما السلام[5].

1 . العلوي المظفر بن الفضل، نضرة الإغريض في نصرة القريض، تح: نهى عارف الحسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، د ت، ص: 183.

2 . نفسه، ص: 183.

3 . ابن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، ج: 16، ص: 95.

4 . الطبري محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج: 15، ص: 524.

5 . ينظر: المصدر نفسه، ص: 525.

وأتى بعد النداء الأسلوب الخبريّ المنفيّ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾، حيث نفوا عن أبيها وعن أمّها الفساد، لكن في الحقيقة« هم أرادُوا ذَمَّها فَأَتَوْا بِكَلامٍ صَرِيحُهُ ثَناءٌ عَلى أَبَوَيْها مُقْتَضٍ أَنَّ شَأْنَها أَنْ تَكُونَ مِثْلَ أَبَوَيْها»[1]، فالمعروف عن اليهود أنّهم أصحاب مكر وخداع، فقد خاطبوا النبي صلّى الله عليه وسلّم بـ السام عليكم أي الموت، فكان ردّ النبيّ بـ : وعليكم.

المطلب الثاني: النداء الموجّه إلى نساء النبيّ:

نجد النداء الموجّه لنساء النبيّ في سورة قرآنية واحدة وهي سورة الأحزاب، في موضعين منها:

أولا: الموضع الأوّل:

قال عزّ وجلّ:﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا (30)﴾ سورة الأحزاب.

المخاطِب أو المنادي في هذه الآية الكريمة هو الله عزّ وجلّ والمنادى مضاف وهو نساء النبي، وهنّ أزواجه رضي الله عنهنّ، ونسبة النساء إلى النبيّ تشريفا لهنّ ورفعا لقدرهنّ، وتمييزا لهنّ عن غيرهنّ من النساء، لأنّ« الإنسان قد يشرف بشرف من اتّصل به»[2]. والنساء اسم جمع، لا واحد له من لفظه، ويقال في جمع المرأة، ومثله في ذلك النسوة، والنسوان، والفرق بين النساء وبينهما: أن النساء جمع كثرة والنسوة جمع قلّة، والألف والنون في النسوان للمبالغة في الكثرة.

والنداء هنا للفت انتباههنّ لأمر عظيم، سيأتي ذكره في الأسلوب الخبريّ المنفيّ الذي جاء بعده، وقد ناداهنّ الله بهذا الوصف« ليعلمن أنّ ما سيلقى إليهنّ خبر يناسب علوّ أقدارهنّ»[3].

أمّا الأسلوب الذي جاء بعد النداء فهو الخبر في قوله تعالى:﴿ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ فالعذاب يكون مناسبا للجرم المقترف، ولمكانة الجاني والمجني عليه،«فلمّا كانت محلتهنّ رفيعة، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهنّ مغلّظا، صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع»[4]. وهذا لقربهنّ من رسول الله، فقد اختارهنّ الله ليكنّ أزواج رسوله وأمّهات المؤمنين، وقد خيّرهنّ من قبل في قوله تعالى:(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ

1 . ابن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، ج: 16، ص: 96.

2 . العثيمين محمد بن صالح، تفسير القرآن الكريم، ج: سورة الأحزاب، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، 1423هـ، ص: 221.

3 . ابن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، ج: 21، ص: 318.

4 . ابن كثير إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ص: 1495.

وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً (28) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَالدَّارَ ٱلَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (29)) سورة الأحزاب, يأمر الله عزّ وجلّ رسوله في هاتين الآيتين بأن يخيّر أزواجه بين الحياة الدنيا وزينتها وبين اللّه ورسوله والدار الآخرة،« فلمّا اخترن اللّه ورسوله والدار الآخرة، ذكر مضاعفة أجرهنّ، ومضاعفة وزرهنّ وإثمهنّ، لو جرى منهنّ، ليزداد حذرهنّ، وشكرهنّ اللّه تعالى»[1]، فكانت أمّهات المؤمنين مسلمات طيّبات قانتات، خير نساء هذه الأمّة، فنعمت النساء نساء النبيّ.

ثانيا: الموضع الثاني

قال تعالى:(يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ انِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً (32) وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْاولِىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (33) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً (34)﴾ سورة الأحزاب.

المنادي في هذه الآية الكريمة هو الله سبحانه وتعالى يخاطب فيها أزواج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال عزّ وجلّ:﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ ولم يقل: كواحدة؛« لأنّ الموضع موضع عموم، فغلب فيه التذكير؛ وإن كان معناه: ليست كل واحدة منكن كواحدة من النساء؛ لِما ذكرناه من دخول الكلام معنى العموم»[2]، وذلك أن لفظة أحد تستغرق الجنس الواقع على المثنى والجمع وليست بمعنى واحد، فمثلا إذا قلت ما وجدت أحدا فقد اشتمل هذا النفي على استغراق الجنس من المذكر والمؤنث والمثنى والجمع،« وقد يقال على ما ليس بآدمي، يقال: ليس فيها أحد، لا شاة ولا بعير»[3].

أمّا الشرط في قوله تعالى:﴿ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ فالمراد منه هو الحثّ والإغراء على التقوى، باعتبار أنّ الإغراء هو حثُّ المخاطب على أمر محمود ليفعله، أو ليلزمه، والخضوع هو الذلّ والانكسار واللين وترخيم الصوت، من الأمور التي تفتن الرجال، إذًا جاء« عطف﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ على﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ بمنزلة الاحتراس[4] لئلاّ يحسبن أنّ الله كلّفهنّ بخفض أصواتهن كحديث السرار»([5]). ومن هنا نهاهنّ الله سبحانه وتعالى عن الخضوع بالقول وأمرهنّ بأن يقلن قولا معروفا، حتى

1 . السعدي عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 632.

2 . ابن جني عثمان، الخصائص، ج: 03، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، 1957، ص: 336.

3 . القرطبي محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، ج: 17، ص: 137.

4 . الاحتراس(الاحتراز): هو أن يكون الكلام محتملا لشيء بعيد، فيؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال.

5 . بن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، ج: 22، ص: 9.

لا يظنّ أحد أنّ المرأة لا تخاطب الرجل مطلقا،« بل المرأة مخاطبتها للرجال جائز، لكن بالقول المعروف»[1]، وهذا من عظمة الإسلام وحفظه للمرأة وصون كرامتها وشرفها.

الخاتمة:

النداء أسلوب بلاغيّ قديم قدم اللغات البشريّة، وذلك لارتباطه الشديد بالعمليّة التواصليّة، فهو من أهمّ الوسائل التي يوظّفها المتكلّم(المنادي) لجلب انتباه المخاطَب(المنادى) من أجل سماعه واستيعابه ما يلقى عليه، فالغاية منه أساسا هو إثارة اهتمام المخاطَب وجلب انتباهه وضمان إصغائه لما يلقى عليه من المتكلّم، وترتبطت بالنداء أساليب بلاغية أخرى، منها الخبريّة ومنها الإنشائيّة، كالأمر والنهي والاستفهام، ويكون لهذه الأساليب تأثير قويّ على الكلام، وللنداء ستّة حروف هي: الهمزة(المقصورة والممدودة)، وأي(المقصورة والممدودة)، يستعملان للقريب، وأمّا يا التي هي أصل النداء تستعمل للقريب وللبعيد.

والقرآن الكريم هو خطاب موجّه إلى الخلق أجمعين، لا يخلو من أسلوب النداء، وقد تنوّعت فيه عناصره، من المنادي إلى المنادى إلى أدوات النداء، فنجد نداء الله عباده، ونداء الله من عباده، ونداء العباد إلى العباد وغير ذلك، وقد ورد النداء إلى المرأة في كتاب الله الكريم في صور مختلفة أيضا، فنجد النداء الصادر من عند العزيز الحكيم، ونجد نداء الملائكة إلى المرأة، وهي امرأة بعينها متمثّلة في مريم بنت عمران، وهذه الأخيرة ليست الوحيدة التي تشرّفت بنداء الله لها بل تشرّفت نساء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بهذا النداء، وتوجّه هذا النداء إليهنّ بصفة مجملة، ولم يتخصّص بواحدة منهنّ كونهنّ يحملن صفة واحدة وهي زوجات النبيّ.

وأسلوب النداء يمثّل تنبيها للمنادى لأمر يهمّه، يتجسّد هذا الأمر المهمّ في الأساليب التي تأتي بعد النداء وترتبط بها ارتباطا وثيقا، لأنّها هي الغاية من النداء، وقد جاءت الأساليب المرتبطة بالنداء الموجّه إلى المرأة متنوّعة بين الخبريّ والإنشائيّ، فالأسلوب الخبري يحمل الأخبار والبشارات، وورد الأسلوب الإنشائيّ في ثلاثة أشكال مختلفة هي: الأمر والنهي والاستفهام، حيث جاء أسلوب الأمر غالبا على الأسلوبين الآخرين لأنّه يحمل الفرائض والإرشادات والتوجيهات والتنبيهات، التي على المرأة التزامها والأخذ بها.

1 . العثيمين محمد بن صالح ، تفسير القرآن الكريم، ج: سورة الأحزاب، ص: 219.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

ثانيا: الكتب

1. ابن جني عثمان، الخصائص، ج: 03، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، 1957.
2. ابن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.
3. ابن كثير إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم، بيروت، 2000.
4. ـــــــــــــ، عمدة التفسير، تح: أحمد شاكر، دار الوفاء، ط: 02، مصر، 2005.
5. ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، مج: 06، ج: 48، تح: عبد الله عي الكبير والآخران، دار المعارف، القاهرة، د ت.
6. البخاري محمد بن إسماعيل، صحيح البخاريّ، دار ابن كثير، دمشق، 2002.
7. دراز صبّاح عبيد، الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، مطبعة الأمانة، مصر، 1986.
8. السامرائي فاضل صالح، معاني النحو، دار الفكر، عمان، 2000.
9. السعدي عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، دار ابن حزم، بيروت، 2003.
10. السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تح: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، 1426.
11. الطبري محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، 2001.
12. عباس حسن، النحو الوافي، ج: 04، ط: 03، دار المعارف، القاهرة.
13. العثيمين محمد بن صالح، تفسير القرآن الكريم، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، 1423هـ، ص: 221.
14. العلوي المظفر بن الفضل، نضرة الإغريض في نصرة القريض، تح: نهى عارف الحسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، د ت.
15. فارس أحمد محمد ، النداء في اللغة والقرآن، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1989.

16. القرطبي محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي ومحمد رضوان عرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2006.

17. القزويني زكريا بن محمد، الإيضاح في علوم البلاغة، وضع الحواشي: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

18. هارون عبد السلام محمد، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة ط: 05، الخانجي، القاهرة.

19. ياسين عبد العزيز أبو سريع، الأساليب الإنشائشة في البلاغة العربية، مطبعة السعادة، مصر، 1989.